مسح علاقة التوسل مع التوحيد والشرك

* محمود حسین‌زاده خراسانی

* استاد و پژوهشگر حوزه علمیه قم.

◆ **مقدمة**

التوحيد أول شيء نادى به النبي المرسلﷺ في عهد الجاهلية و هو من المباحث الأساسية و العناصر الرئيسية في الإسلام و في سائر الأديان السماوية و لكن الشرک جرثومةٌ و أصلٌ لإيجاد المغادرة في فكر الإنساني و إستمرار سنن الجاهلية.

و الملاحظ أن المراد من التوحيد في الإسلام اولاً هو التوحيد في العبادة؛ لأن بعض المشركين يعتقدون بأن الله سبحانه تعالى خالق الأشياء بلا ند؛ كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ**﴾،[1] و أيضا يعتقدون بأن عبادتهم بسبب للأوثان إنما هي لأجل أن يقربهم كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ**﴾[2] ثم الصراع مع الوثنية.

و قد جرت السيرة المطَّردة منذ صدر الإسلام، من عصر الصحابة الأوَّلين و التابعين لهم بإحسان، على زيارة قبور ضمّت في بطونها نبيّاً مرسلًا، أو إماماً طاهراً، أو وليّاً صالحاً، أو عظيماً من عظماء الدّين، و في مقدّمها قبر النبيّ الأقدسﷺ و كانت الصلاة لديها، و الدعاء عندها، و التبرُّك و التوسّل بها، والتقرُّب إلى اللهَّ و ابتغاء الزلفة لديه

١. سورة الزخرف، الآية ٨٧.

٢. سورة الزمر، الآية ٣.

بإتيان تلك المشاهد، من المتسالم عليه بين فِرق المسلمين، من دون أيّ نكير من آحادهم، و أيّ غميزةٍ من أحد منهم على اختلاف مذاهبهم.

◆ **التوسل لغة و اصطلاحا**

الوسيلة في الأَصل ما يُتَوَصَّل به إِلى الشيء و يُتَقَرَّب به[1] و قال الفيومي:

وسَلْتُ: إِلَى اللهِّ بِالْعَمَلِ «أَسِلُ» رَغِبْتُ و تَقَرَّبْتُ وَ مِنْهُ اشْتِقَاقُ «الْوَسِيلَةِ» وَ هِيَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى الشَّيءِ ... و «تَوَسَّلَ» إِلَى رَبِّهِ بِوَسِيلَةٍ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِعَمَلٍ.[2]

و معناه الاصطلاحي ليس بعيداً من معناه اللغوي و هو جعل الوسيلة للوصول إلى المطلوب.

◆ **المبحث الأول: أنواع التوسل**

التوسل ينقسم إلى ثلاثة اقسام:

١ـ التوسل الجائز بإجماع المسلمين حتى الوهابية؛

٢ـ التوسل غير الجائز بإجماع المسلمين حتى الشيعة؛

٣ـ التوسل الذى فيه اختلاف بين المسلمين و بين السلفية؛

١. *لسان العرب*، ج١١، ص٧٢٥؛ *مجمع البحرين*، ج ٥، ص ٤٩١.

٢. *المصباح المنير*، ج٢، ص ٦٦٠.

الف) التوسل الجائز بإجماع المسلمين حتى الوهابية[1]

◆ **هذا القسم ايضاً ينقسم إلى أقسام:**

١ـ التوسل بأسماء الله و صفاته: و دليله قوله سبحانه:﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] و أخرج الترمذي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول:

اللهم اني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله الا أنت، الأحد، الصمد، الذي لَمْ يَلِدْ، وَ لَمْ يُولَدْ، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ. فقال النبي: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي اذا دعي به أجاب، و اذا سئل به أعطى».[3]

و الأحاديث في ذلك كثيرة.

٢ـ التوسل بالقرآن الكريم: و هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه. روى الإمام أحمد، عن عمران بن الحصين:

أنه مر على رجل يقص، فقال عمران: إِنَّا للهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ سمعت رسول الله يقول: «اقرءوا القرآن و اسألوا الله تبارك و تعالى به قبل أن يجيئ قوم يسألون به الناس»[1]

---

١. كما قال محمد نسيب الرفاعي أحد مقلدي مذهب الوهابية فى كتابه تحت عنوان *التوصل إلى حقيقة التوسل*. فقد قسم التوسل في هذا الكتاب إلى نوعين: «المشروع» و «الممنوع». فالتوسلات المشروعة برأيه، هي عبارة عن: ١. التوسل إلى اللهّ و أسمائه و صفاته؛٢. توسط أي إنسان بأعماله الصالحة التي قام بها طوال حياته؛٣. التوسل بدعاء الأخ المؤمن في حالة الحياة (*التوصل إلى حقيقة التوسل*، ص ٣٥٠) ؛ http://search.ibnbaz.org ؛*اعتقاد الائمة الاربعة*، ج ١، ص ٨ .ذكر طلال بن مصطفى *اقسام التوسل الجايز* في كتابه *التوسل في كتاب الله عزوجل*، ص ٢٠.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

٣. *سنن الترمذي*، ج ٥، ص ٥١٥. ح ٣٤٧٥.

و ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه يستحب في ليلة القدر أن يفتح القرآن أمامه فيقول:«اللهم أني أسألك بكتابك المنزل و ما فيه، و فيه اسمك الأكبر و أسماؤك الحسنى و ما يخاف و يرجى أن تجعلني من عتقائك من النار».[2]

٣-التوسل بالأعمال الصالحة: حيث يتقرب الإنسان إلى ربه بأحسن عمل عمله و قد تظافرت الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله في ذكر هذا التوسل، أهمها حديث النفر الذي انطبق عليهم الغار فاتفقوا على أن يدعو كل واحد منهم بأحسن عمل عمله، فلما فعلوا ذلك فرج الله عنهم و نجاهم».

و قد رواه البخاري في صحيحه و هو حديث مشهور.[3]

٤ـ التوسل بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله في حياته الدنيوية: و هو من أعظم الوسائل و أخصها؛ لأن الرسول الأكرم مستجاب الدعوة مقبول عند ربه و مرسله. و قد أشار القرآن إلى هذه الخاصية. يقول سبحانه و تعالى:﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾.[4]

٥ـ التوسل بدعاء المؤمنين بشرط حياتهم: و قد ورد في القرآن ان الملائكة يستغفرون للمؤمنين[5] و في الأحاديث حثّ على دعاء المؤمن لأخيه، بل أن ذلك من أسباب تعجيل الإجابة.[1]

---

١. *المسند*، ج ٤، ص ٤٤٥.

٢. *الإقبال بالأعمال الحسنة*، ج١، ص ٣٤٦.

٣. *الصحيح*، ج ٤، ص ١٧٣، كتاب الأنبياء.

٤. سورة النساء، الآية ٦٤.

٥. سورة غافر، الآية ٧؛ سورة الشورى، الآية ٥.

ب) التوسل غير الجائز بإجماع المسلمين حتى شيعة أهل البيت عليهم السلام

التوسل بالنبى صلى الله عليه و آله و الاستعانة بهم بما انهم مستقلّون باستجابة الدعاء و إنجاح الحاجة و رفع الحوائج و لكن الشيعة متوسّلون بهم عليهم السلام؛ لأنّ المتوسل جعلهم عليهم السلام وسائط و وسيلةً لإجابة الله دعاءَه.

ج) التوسل الذى فيه اختلاف بين المسلمين و بين السلفية

و هو التوسل بالنبي و آله عليهم السلام في غير زمن حياتهم الدنيوية و هو جائز عند المسلمين سيما الشيعة المعتقدين ان هذا التوسل أحد المصاديق المبينة للوسيلة المذكورة في كلام الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[2] و ابتغاء الوسيلة ـ كما رأينا هنا ـ مطلق فيشمل جميع الموارد و الأزمنة سواء كانت في حياة النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المعصومين عليهم السلام أم في غير حياتهم الظاهرية كما ينقل أحمد بن حنبل عن عائشة، أن المسروق قال لها:

> سألتكِ بحقّ هذا القبر، ما الّذي سمعتِ من رسول اللهَّ في حقّ الخوارج؟ قالت سمعته يقول: إنّهم شرّ الخلق و الخليقة و يقتلهم خير الخلق و الخليقة و أقربهم عند الله وسيلة.[3]

---

١. *الكافى*، ج٢، ص ٥٠٧؛ باب الدعاء للإخوان بظهر الغيب.

٢. سورة المائدة ، الآية ٣٥.

٣. *المسند*، ج ٥، ص ٣١؛ *شرح نهج البلاغة*، ج٢، ص ٢٦٧؛*كشف الغمة* ، ج١، ص ١٥٩؛*الايضاح*، ص ٣٧٢،*احقاق الحق* ، ج١٥، ص٢٦٦.

أما عند السلفية فإنهم يعتقدون بأن لا ضرورة في قضاء الحاجات و إنجاح الحوائج عنده تعالى إلى التوسل. فلهذا نفاه الوهابيون به و استدلوا على ذلک بوجهين:

أ) البدعة: فإن هذا العمل لم يكن موجوداً في عهد رسول الله ﷺ و الصحابة و لهذا كان التوسل بدعة واضحة.

ب) الشرک: لأن التوسل من أقسام الطاعة و عبادة غير الله و هو شرک بلاريب.[1]

و أما الذي يلتفت النظر في هذا المجال هو تطورات الفكرية للوهابية حول مسألة التوسل:

المرحلة الأولى: في هذه المرحلة ينكرون التوسل و الاعتقاد به؛ لما أنه لا منشأ له في عهد الرسول ﷺ و الصحابة.

المرحلة الثانية: اما إذا تحرّش به في تلک الزمان و عمل الأصحاب و المسلمين، عدلوا عن كلامهم و قالوا: إنما كان التوسل في زمن الصحابة بالأحياء فقط دون الأموات و يحتجون لذلک تارة كما عن ابن عبد الوهاب و ابن تيمية بأنه خطاب لمعدوم، و ذلك قبيح عقلًا، لعدم قدرة الميت على الإجابة و أخرى كما عن ابن تيمية: بأنه شرك.[2]

و هذا الاعتقاد مبني على القول بموت الأنبياء و انقطاع صلتهم بالدنيا تماما و لكن بالبداية الجواب المختصر عن هذه الشبهة هو أن التوسل بالنبي ﷺ و المعصومين عليهم السلام بعد رحيلهم من الدنيا، توسل بالأحياء لأنهم بالموت في الحقيقة انتقلوا من حياة الدنيوية

١. *كشف الإرتياب*، ص ٣٠٢.

٢. *الفتاوى الكبرى*، ج ١، ص ٣٥١؛ *منهاج السنة*، ج ١، ص ١١.

إلى حياتهم البرزخية و مَثَل الموت مَثَل القنطرة اللتى ينتقل من خلالها من مكان إلى مكان و قد أجاد الغزالي الشافعى حيث قال في *إحياء علوم الدين*:

ظن بعضهم أن الموت هو العدم و هذا رأي الملحدين و كلٍّ من لا يؤمن بالله واليوم الآخر و هذا معنى ما يقال: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.[1]

و من حسن الحظ أنّ المسلمين اتّفقوا على أنّه صلى الله عليه وآله حيّ و على الرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين، فإنهم يسلّمون على رسول الله صلى الله عليه وآله في تشهدهم في الصلاة، و يقولون: «السّلام عليك أيّها النَّبيّ و رحمة الله و بركاته».

و قد أفتى الإمام الشافعي و آخرون بوجوب هذا السلام بعد التشهد و أفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متّفقون على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله علّمهم السلام و أنّ سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله ثابتة في حياته و بعد وفاته فلو انقطعت صلتنا بالنبي صلى الله عليه وآله بوفاته، فما معنى مخاطبته و السلام عليه يومياً؟![2]

◆ **أما الجواب عن دعوى أن التوسل شرك**

فهو أن التوسّل بدعاء الرسول بعد رحيله لا يمكن أن يصبح شركاً و إلّا يكون التوسّل بدعائه في حياته شركاً أيضاً، لأنّ الحياة و الموت ليسا مدار التوحيد و الشرك؛ بل هما مدار كون الفعل (الدعاء) مفيداً أو غير مفيد، فلو كان نبيّ الشهداء و رسولهم،

---

١. *المناقب*، ص ٣٧٥، ح ٣٩٥؛ *ينابيع المودّة*، ص ٣٤٦ نقلاً من *كشف البراهين الجلية*، ص ٣١.

٢. *رسائل و مقالات*، ج٥، ص ٣٤٩.

كنفس الشهداء حياً، فيكون طلب الدعاء منه كطلبه في حياته الدنيوية. فإذا كان النبيّ ﷺ يسمع كلام المتوسّل، يصبح التوسل مفيداً لا لغواً و موافقاً لأُصول التوحيد لا شركاً، مع أنّ الكلام في إلصاق تهمة الشرك بالمتوسّل بدعاء النبي بعد رحيله، لا في كونه مفيداً أو غير مفيد.

هذا و أما المباحث التفصيلية في هذا المجال أعني التوسل بهم في حياتهم البرزخية من المباحث التي ما نحن بصدده.

◆ **المبحث الثانى: الإجابة الحلّية؛ انسجام التوسل مع التوحيد**

و ههنا سؤال أساسي: فهو أنه لماذا يتصور الوهابيون أن التوسل نوع من الشرك؟ و كيف يتقاطع التوسل مع أحد مراتب التوحيد؟ و هل أن التوسل يتنافى مع توحيد الذات أو مع توحيد الصفات؟

لا ريب أن التوسل لا يتنافى مع توحيد الذات و الصفات و لكن هل يوجب التوسل مشكلة في دائرة العبادات و التوحيد الأفعالي؟

لقد اعتقد السلفية ذلک و بنوا عليه كلامهم في هذه المسألة و لكن الصواب خلاف ذلک كما سنبيّن.

◆ **الإنسجام بين التوسل و التوحيد الأفعالي**

لابد أولاً من تنقيح شبهة عدم تلائم التوسل مع التوحيد الأفعالي. الظاهر أن مقصود الوهابيين من أن التوسل شرك هو أنه يتنافى مع التوحيد الأفعالي؛ لأن الشخص الذي يتوسل بالنبي ﷺ أو الإمام عليه السلام و يطلب منه حاجته، يرى أن غير الله تعالى له

تأثير في عالم الخلق، و نعلم أن التأثير منحصر بالله تعالى و لو أن الإنسان اعتقد بأن غير الله يمكنه أن يؤثر في عالم الوجود فهذا الاعتقاد نحو من أنحاء الشرك.

والجواب على هذا الكلام، أن الشيعة لا يرون للنبي صلى الله عليه وآله و الإمام عليه السلام و القرآن تأثيراً مستقلا في عالم الخلق في عرض الله تعالى، بل يعتقدون بأن قدرتهم في طول القدرة الإلهية، و لا تكون قدرتهم مؤثرةً إلّا بإذن الله و مشيئته و هذا المعنى لا يتنافى إطلاقاً مع التوحيد الأفعالي، نعم إذا قلنا إنّ النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام يؤثّر في عالم الخلق بالإستقلال ـ نعوذ بالله ـ فهذا هو الشرك و لكن لا أحد من المسلمين يقول بهذا مطلقا.

◆ الإنسجام بين التوسل و التوحيد العبادي

أما تنقيح شبهة عدم تلائم التوسل مع التوحيد العبادي، فإن الوهابية تعترف بنوعين من التوحيد و هما توحيد الربوبية و توحيد الألوهية.[1] ثم يذكرون أنّ توحيد الربوبية و الاعتقاد بوحدانية الخالق لايكفي بمجرده في تحقق التوحيد،[2] بل يجب ـ مضافةً على

١. هم يفسرون الأول بالتوحيد في الخالقية و الثاني بالتوحيد في العبادة، و كلا الاصطلاحين خطأ. أما الأول فالمراد من الربوبية هو تدبير المربوب و ادارته، و أن وظيفة الرب الذي هو بمعنى الصاحب. إدارة مربوبه، كرب الدابة و الدار و البستان بالنسبة إليها. فالتوحيد في الربوبية غير التوحيد في الخالقية، و ان كان ربما تنتهي الربوبية إلى الخالقية. و أما الثاني، أعني التوحيد في الألوهية فهو مبني على ان الإله بمعنى المعبود، و لكنه خطأ، بل هو و لفظ الجلالة بمعنى واحد، غير ان الأول كلي و الثاني عَلَمٌ لواحد من مصاديق ذلك الكلي. *بحوث في الملل و النحل*، ج ٤، ص ٦٧.

٢. *فتح المجيد*، ص ١٢: و يؤكدون على هذين النوعين من التوحيد ثم يتهمون المسلمين بأنّهم موحّدون ربوبياً (اى خالقيا) لا ألوهياً (أى عباديا). و قد عرفت في الهامش السابقة أنّ تسمية التوحيد في الخالقية بالتوحيد الربوبي، وتسمية التوحيد في العبادة بالتوحيد الألوهي خطأ من حيث اللغة و مصطلح القرآن.

توحيد الربوبية ـ أن يفرد الله بالعبادة و لايشرك به أحداً؛ لأنّ مشركي العرب مع أنّهم كانوا يوحّدون خالق الكون و يعتقدون بأنّه واحد لا أكثر فإنّ القرآن كان يعتبرهم مشركين إذ يقول:﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾.[1] و أما إذا كان التوسل خضوعاً و تذللاً لغير الله فهو شرك أكبر.[2]

◆ **مفهوم العبادة**

و السلفيون قد زلّوا و أخطئوا خطأً فاحشاً في مفهوم العبادة و كان ذلک سببا لمغادرتهم و اتهامهم المسلمين بالشرک.

جاءت في المعاجم العربية تعاريف لكلمة العبادة؛ فابن منظور يفسرها «بالخضوع و التذلل»،[3] أما الراغب في *المفردات* فيقول: «العبودية: إظهار التذلل و العبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل»،[4] و الطريحي في *مجمع البحرين*:«العِبَادَةُ هي غاية الخضوع و التذلل».[5]

و لكن جميع هذه التعاريف ما هي إلا نوع من التعريف بالمعنى الأعم لأن الطاعة و الخضوع و اظهار التذلل ليست ـ على وجه الإطلاق ـ عبادة؛ لأن خضوع الولد أمام والده و التلميذ أمام استاذه و الجندي أمام قائده لا يعد عبادة مطلقا مهما بالغوا في الخضوع و التذلل.[6]

١. سورة يوسف، الآية ١٠٦.
٢. *كشف الإرتياب*، ص ٣٠١.
٣. *لسان العرب*، ج٣، ص ٢٧١.
٤. *مفردات الفاظ القرآن*، ص ٥٤٢.
٥. *مجمع البحرين*، ج٣، ص ٩٢.
٦. *راجع التوحيد و الشرك*، ص ٥١.

و هنا آيات متعددة تصف هذا الخضوع و لا تعتبره عبادة؛ مثل:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾.[1] فكان سجودهم له تعظيما و تكريما و لم يكن عبادة له أو جعله شريكا لله.

و قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾.[2]

و كذا تذلل المؤمنين بعضهم بعضا. فإذن لا يكون الخضوع ـ بجميع مراتبه ـ عبادة إلا إذا دخل فيه عنصر قلبي خاص يميزه عن نظائره و هذا العنصر عبارة عن أحد الأمور التالية:

١. الاعتقاد بألوهية المعبود؛

٢. الاعتقاد بربوبيته؛

٣. الاعتقاد باستقلاله في الفعل من دون أن يستعين بمعين أو يعتمد على معاضد.[3]

و يتضح من ذلك أن مقوم العبادة ليس هو نفس العمل أو الفعل الظاهري و لكنه الاعتقاد القلبي الباطني فالمشركون على عهد الرسول صلى الله عليه وآله و قبله كان منهم من يعتقد بألوهية معبوده كأحد الآلهة الصغيرة إلى جنب الإله الكبير. لذلك قال المشركون للرسول صلى الله عليه وآله كما حكى عنهم القرآن:﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ

١. سورة البقرة، الآية ٣٤.

٢. سورة يوسف، الآية ١٠٠.

٣. *بحوث في الملل و النحل*، ج ٤، ص ٦٨ - ٦٩.

عُجَابٌ﴾[1] و منهم من كان يعتقد بأن لمعبوده تدبيراً فعلياً مستقلاً فلذلك، عبده و طلب منه و رجاه و منهم من كان يعلم بأن معبوده مخلوق لله، لكنه مستقل في فعله يمكنه أن يرزق أو يضر و ينفع من أجل ذلك توجه له بالعبادة و اتخذه معبودا له.

فينبغي القول بأن الوهابيين وقعوا في التباس كبير؛ لأن الشيعة عندما يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وآله أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام أو القرآن الكريم لا يرون أن ذلك عبادة لهؤلاء إطلاقاً كما هو الحال في عبادة المشركين للأصنام و الأوثان و تصورهم أنها شفعاء لهم عند اللهَّ، بل نحن نطلب من هؤلاء الأولياء أن يتوسطوا لنا بما لديهم من جاه و مقام عند الله تعالى لحلِّ مشاكلنا و استجابة دعائنا و هكذا نرى أن المسيح عليه السلام يقول بأنني أصنع لكم طيراً من طين ثمّ أنفخ فيه الحياة و الروح فيتحول هذا التمثال الطيني إلى طائر حيّ بإذن الله، أي إنني لا أستطيع التأثير في هذه الأشياء في عرض قدرة الله و مشيئته بل إن قدرتي و تأثيري إنّما هي بإذن الله:﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.[2]

و على هذا الأساس فإنّ الفرق بين التوسل و بين عبادة المشركين واضح جدّاً و الشخص الذي يتصور أن توسل الشيعة إنما هو مثل عبادة المشركين للأوثان في الحقيقة هو إنسان بعيد عن الإنصاف و جادة العلم و الصواب.

١. سورة ص، الآية ٥.

٢. سورة آل عمران، الآية ٤٩.

◆ **المبحث الثالث: الإجابة النقضية الوجيزة**

الأول: التوسل بشيء معدوم حدّه الأقصى امرٌ عبث لا شرک

إذا قلنا و سلّمنا بأن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله و آله عليهم السلام بعد حياتهم الدنيوية خطاب لمعدوم ـ كما يقول السلفية ـ فلماذا يكون التوسل بهم شركاً؟! لأن التوسل بشيء معدوم حدّه الأقصى أنه أمرٌ عبث لا شرک و لكننا علمنا بأنهم أحياء بحياة برزخية فإذن ليس التوسل أمرا عبثا و نجد لهذا أمر مصاديق و شواهدَ كثيرة فی روايات إخواننا السنة فيه:

١. توسل آدم عليه السلام بأهل البيت عليهم السلام :*فرائد السمطين* بإسناده عن أبي هريرة حول قصة آدم، أنّه تعالى قال:

> يا آدم هؤلاء صفوتی ... فإذا كان لك لي حاجة فبهؤلاء توسل، فقال النبي: نحن سفينة النجاة من تعلق بها نجا و من حاد عنها هلك، فمن كان له إلى الله حاجة فليسألنا أهل البيت.[1]

و نقل سيوطی استغاثة آدم عليه السلام بالله تعالى:

> اللهمّ إنّی أسألك بحقّ محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلا أنت، عملت سوءً، و ظلمت نفسي فاغفر لي إنّك أنت الغفور الرحيم. فهؤلاء الكلمات التی تلقی آدم.[2]

٢. توسل الصحابه بالنبی صلى الله عليه وآله بعد حياته: روى ابن أبي شيبة من رواية أبي صالح السمّان عن مالك الدار و كان خازن عمر قال:

---

١. *فرائد السمطين*، ج ١، ص ٣٦، ح ١؛ *الرياض النضرة*، ج ٣، ص ١١٠؛ *كفاية الطالب*، ص ٨٢-٨٤.

٢. *الدر المنثور في تفسير بالمأثور*، ج١، ص ٦٠.

أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل[1] إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول اللهَّ هلك الناس، استسق لأُمّتك، فأتاه رسول اللهَّ ﷺ في المنام، فقال: إئت عمر فاقرأه منّي السلام، و أخبره أنّهم مسقون مستقيون، و قل له: عليك الكيس! عليك الكيس! قال: فأتى الرجل عمر فأخبره، فبكى عمر، و قال: يا رب ما آلو إلّا ما عجزت عنه.[2]

لا يقال أن هذه الرواية لا يعتنى بها لأنها ضعيفة سنداً، فإنا نقول إن الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى[3] و ابن كثير[4] ذهبا إلى صحتها.

فإذن «لو كان طلب الاستسقاء منه ﷺ جهلا و ضلالا و شركا لمنعه عمر رضي الله عنه ... و هو من الأمور المشهورة».[5]

قال الحصني دمشقي الشافعي في بيان زيغ ابن تيمية و حزبه في جواب الفتوى التي زعم أنه سئل عنها:

من استغاث بميّت أو غائب من البشر، بحيث يدعوه فى الشدائد و الكربات، و يطلب منه قضاء الحاجات ... فإنّ هذا ظالم، ضالّ، مشرك. هذا شيء تقشعرّ منه الأبدان و لم نسمع أحداً فاه، بل و لا رمز

١. *قال ابن حجر*، روى سيف بن عمر التميمي في *الفتوح الكبير* أنّ الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة. *فتح الباري*، ج٢، ص ٤١٢.

٢. *طبقات ابن سعد*، ج ٥،ص ١٢؛ *تاريخ دمشق*، ج٤٤، ص٣٤٦.

٣. *فتح الباري*، ج ٢، ص ٤١٢.

٤. *البداية و النهاية*، ج ٧، ص١٠٥.

٥. *دفع شبهة من شبه و تمرد*، ص، ٣٧٢.

إليه فى زمن من الأزمان و لا بلد من البلدان، قبل زنديق حرّان ـ قاتله الله عزّ وجلّ ـ وقد جعل الزنديق الجاهل الجامد، قصّة عمر ﷺ دعامة للتوصّل بها إلى خبث طويّته فى الإزدراء بسيّد الأوّلين و الآخرين و أكرم السابقين و اللاحقين و حطّ رتبته فى حياته و أنّ جاهه و حرمته و رسالته و غير ذلك زال بموته و ذلك منه كفر بيقين وزندقة محقّقة.[1]

الثانى: التوسل مسألة فقهية لا اعتقادية

فقد كانت مسألة التوسل و الاستشفاع و الاستغاثة لمدة ثمانية قرون مسألةً فقهية و كان فقهاء المذاهب الأربعة يبحثونها في باب الحج و الزيارة و غيرهما، فيذكرون صورها، و يفتي مفتيهم بجواز بعض فروعها و حرمة بعضها، أو التوقف فيه، حتى جاء عالم حرّاني فكفر مسلمي عصره و العصور المتقدمة، لأنهم يتوسلون بنبيهم الميت!فإذن جُلّ علماء السنة يعتقدون أن التوسل مسألة فقهية؛ كما قال محمود سعيد ممدوح من علماء السنة المعاصرين:

التوسل من موضوعات الفروع؛ لأن حقيقته اتخاذ الوسيلة أى قربة إلى الله تعالى، قال الله عز و جلّ:﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ**﴾[2] و التوسل على أنواع و أمره يدور بين الجواز و الندب و الحرمة و ما كان أمره كذلك فهو من أحكام الشريعة التى موضوعها علم الفقه و إقحام موضوعات الفقه فى

١. *دفع الشبه عن الرسول*،ص ١٣١؛ *دفع شبهة من شبّه وتمرّد*، ص ٣٤٦.

٢. سورة المائده، الآية ٣٥.

التوحيد و العقائد خطأ يجب مجانبته و السادة الفقهاء يذكرون استحباب التوسل أو جوازه فى باب الاستسقاء فى كتاب الصلاة و عند زيارة قبر النبى ﷺ فى كتاب الحج أما سلك بحث التوسل فى العقائد و جعله وسيلة من وسائل الشرك فبدعة قد حلّت بالمسلمين و مسلكا قد زرع عداوة بينهم ... و ينبغى على العقلاء كشف أوزار و اخطار هؤلاء الجهلة.[1]

المبحث الرابع: في حكاية بعض التوسلات الصادرة من أهل السنة و علمائهم

و نقتصر هنا على إيراد نبذة منها في الدلالة على جواز التوسل بعد الممات؛

١. قال ابن الجوزي:

أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد العتيقي قال: سمعت أبابكر محمد بن الحسن بن عبدان الصيرفي يقول: سمعت جعفر الخلدي: كَانَ فِيَّ جَرَبٌ عَظِيمٌ كَثِيرٌ، قَالَ: فَمَسَحْتُ بِتُرَابِ قَبْرِ **الْحُسَيْنِ**، قَالَ: فَغَفَوْتُ فَانْتَبَهْتُ، وَ لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ.[2]

١. *رفع النارة*، ص ٣٨.

٢. *المنتظم*، ج ٥، في حوادث سنة إحدى و ستين.

٢. قال الحافظ الخطيب البغدادي:[١]

أنبأنا أحمدُ بنُ جعفر بن حمدان القطيعي قال سمعت الحسن بن إبراهيم ... يقول : ما هَمَّني أمرٌ فَقَصَدْتُ قبرَ موسى بن جعفر فتوسلتُ به الا سَهَّلَ اللهُ تعالى لي ما أحبُّ.[٢]

٣. قال ابن حبان:

على بن موسى الرضا و هو على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب أبو الحسن، من سادات أهل البيت و عقلائهم و جلة الهاشميين و نبلائهم ... و مات علي بن موسى الرضا بطوس من شربة سقاه إياها المأمون فمات من ساعته ...

و قد زرتُه مرارا كثيرة و ما حلّتْ بي شدة في وقت مقامى بطوس فزرت قبر على بن موسى الرضا صلوات الله على جده و عليه و دعوتُ اللهَ إزالتَها عنّى إلا استجيب لي و زالت عنى تلك الشدة و هذا شيء جَرَّبتُهُ مراراً فوجدته كذلك أماتنا الله على محبة المصطفى و أهل بيته صلى الله عليه و سلم الله عليه و عليهم أجمعين.[٣]

٤. قال ابن حجر العسقلانى:

نظم الشافعي أبياتا في التوسل بأهل البيت عليهم السلام :

---

١. هو الذي قيل فيه: إن المؤلفين في كتب الحديث درايةً عيالٌ على كتبه.

٢. *تاريخ البغداد*، ج ١، ص ١٣٣.

٣. *الثقات*، ج ٨، الرقم ١٤٤١١.

آلُ النَّبيِّ ذَريعَتــي وَهُــمْ الَــيْهِ وَسيلَتِي

ارْجُو بِهِمْ اعْطى غَداً بِيَدِ الْيُمْنى صَحيفَتِي.[1]

٥. قال الحافظ الخطيب البغدادي:

أخبرنا القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد الصيمري قال أنبأنا عمر بن إبراهيم قال نبأنا علي بن ميمون قال سمعت الشافعي يقول : إني لاتبرك بأبي حنيفة و أجيئ إلى قبره في كل يوم يعني زائرا فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين و جئت إلى قبره و سألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد عني حتى تقضى.[2]

٦. قال المزي في *تهذيب الكمال* في ترجمة صفوان بن سليم المدني:

قال أبو عبد الله الأردبيلي: سمعت أبابكر بن أبي الخصيب يقول: ذُكر صفوان بن سليم عند أحمد بن حنبل فقال: هذا رجل يستسقى بحديثه و ينزل القطر من السماء بذكره.[3]

٧. ابن العديم في *بغية الطلب في تاريخ حلب* يقر بأن قبور الأنبياء و الأولياء من مظان استجابة الدعاء و عقد لذلك بابا بعنوان: «باب في ذكر ما بحَلَب و أعمالها من المزارات و قبور الأنبياء و الأولياء و المواطن الشريفة التي بها مظان اجابة الدعاء».[1]

---

١. هما بيتان نقلهما ابن حجر الهيثمي عن الإمام الشافعي في كتابه؛ *الصواعق المحرقة* ، ١٨٠؛ *التوصل إلى حقيقة التوسل*، ص ٣٢٩.

٢. *تاريخ البغداد*، ج ١، ص ١٣٥.

٣. *تهذيب الكمال*، ج١٣، ص ١٨٦.

◆ **النتيجة**

و النتيجة هي أن التوسل لا يتنافى مع توحيد الذات و لا توحيد الصفات و لا التوحيد في الافعال و العبادة و قد جرت السيرة المطَّردة منذ صدر الإسلام من عصر الصحابة الأوَّلين و التابعين لهم بإحسان، على التوسّل بالأنبياء عليهم السلام و أهل البيت عليهم السلام و عظماء الدّين و في مقدّمهم النبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله تقرُّباً إلى اللهَّ و ابتغاءَ الزلفة لديه بإتيان تلك المشاهد و هو المتسالم عليه بين فِرق المسلمين، من دون أيّ نكير من آحادهم، و أيّ غميزةٍ من أحد منهم على اختلاف مذاهبهم.

١. *بغية الطلب في تاريخ الحلب*، ج١، ص ١٣٣.

◆ المصادر

* القرآن الكريم.

١. *إحقاق الحق و إزهاق الباطل*: القاضى نور الله، قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ ق.

٢. *اعتقاد الائمة الاربعة* : محمد بن عبدالرحمن الخميس ، المملكه العربيه السعوديه: دارالعاصمة، الطبعة الاولى، ١٤١٢ق.

٣. *الإقبال بالأعمال الحسنة*: على بن موسى ابن طاووس، ، تصحيح: جواد قيومى اصفهانى، قم: مكتب الإعلام الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ش.

٤. *الصواعق المحرقة*: أحمد بن حجر الهيتمي ، مصر : مكتبة القاهرة، ١٣٨٥ق.

٥. *الإيضاح*: الفضل بن شاذان، طهران: منشورات جامعة طهران، ١٤٠٤ق.

٦. *بحوث في الملل و النحل*: جعفر السبحانى، بيروت: الدار الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.

٧. *البداية والنهاية*: ابن كثير الدمشقي، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢ق.

٨. *بغية الطلب في تاريخ الحلب*: ابن العديم، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دمشق، ١٤٠٩ق.

٩. *تاريخ بغداد*: أبوبكر أحمد بن عليّ الخطيب البغدادى، بيروت: دار الكتب العلميّة.

١٠. *تاريخ دمشق الكبير*: ابن عساكر، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٧هـ.

١١. *التوحيد و الشرك في القرآن الكريم*: جعفر السبحانى، أسوة، قم: الطبعة الثانيه، ١٤١٣هـ.

١٢. *التوسل في كتاب الله عزوجل*: عرقسوس طلال بن مصطفى، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامى، الطبعة السادسة و الثلاثون، ١٤٢١ق.

١٣. *التوصل إلى حقيقة التوسّل*: محمد نسيب الرفاعي، بيروت، ١٣٩٤ق.

١٤. *تهذيب الكمال*: أبو الحجاج جمال الدين يوسف المزّي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤١٣ق.

١٥. *الثقات العيون في سادس القرون*: آقا بزرگ الطهراني، قم المقدسة: مؤسسة إسماعيليان.

١٦. *الدر المنثور فى التفسير بالمأثور*: سيوطى جلال الدين، قم: مكتبة آية الله المرعشى النجفى ١٤٠٤ق.

١٧. *دفع الشبهة عن الرسول والرسالة*: تقى الدين الحصني الدمشقي، تحقيق: لجنة من العلماء، الطبعة الثانية، ١٤١٨ق.

١٨. *دفع شبه من شبّه و تمرّد*: ابوبكر الحصيني، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى، ١٤٢٥ق.

١٩. *رسائل و مقالات*: جعفر السبحانى، قم: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، الطبعة الثانية، ١٤٢٥ ق.

٢٠. *رفع المنارة*: محمود سعيد ممدوح، عمان: دار الإمام النووى، ١٤١٦ق.

٢١. *الرياض النضرة في مناقب العشرة* : الطبرى محب الدين أحمد بن عبدالله، بيروت: دارالكتب العلمية.

٢٢. *سنن الترمذي*: محمد بن عيسى الترمذي، بيروت:دار إحياء التراث العربي.

٢٣. *صحيح البخاري*: محمد بن إسماعيل البخاري، مصر: مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي، ١٣١٤ق.

٢٤. *الطبقات الكبرى*: محمد بن سعد، ، بيروت: دار صادر، ١٣٨٠ق.

٢٥. *الفتاوى الكبرى*: احمدبن عبدالحليم بن تيميّه الحرّانى، بيروت: دارالمعرفة، ١٣٨٦ق.

٢٦. *فتح الباري*: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢٧. *فتح المجيد*: عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، بيروت:دار القلم.

٢٨. *فرائد السمطين*: الجويني الخراساني، إبراهيم بن محمد بن المؤيّد بن عبدالله بن علي بن محمد، بيروت: مؤسسة المحمودي، الطبعة الأولى، ١٣٩٨ق.

٢٩. *كافى*: كلينى، تحقيق: على اكبر غفارى، تهران: دار الكتب الاسلاميّة، چاپ چهارم، ١٣٦٥ش.

٣٠. *كفاية الطالب في مناقب علي بن ابي طالب*: ابوعبدالله محمد بن يوسف الگنجى الشافعى، النجف: المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، ١٣٩٠ق.

٣١. *كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب*: محسن الأمين، قم: منشورات مكتبة الحرمين، ١٣٨٢ق.

٣٢. *كشف الغمة*: علي بن عيسى الإربلي، بيروت:دارالأضواء، ١٤٠٥ق.

٣٣. *لسان العرب*: محمد بن مكرم بن منظور، تصحيح: جمال الدين ميردامادى، بيروت: دار الفكر ، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ق.

٣٤. *مجمع البحرين*: فخرالدين بن محمد الطريحي، تصحيح: احمد حسينى الاشكورى، طهران: مرتضوى، الطبعة الثالثة، ١٣٧٥ ش.

٣٥. *المصباح المنير في غريب الشرح الكبير*: أحمد بن محمد الفيومى، قم: موسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية،١٤١٤ق.

٣٦. *مفردات ألفاظ القرآن*: حسين بن محمد الراغب الإصفهانى، ، بيروت ـ دمشق: دار القلم ـ الدار الشامية، الطبعة الأولى، ١٤١٢ق.

٣٧. *المناقب*: أحمد بن محمّد الخوارزمي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١١ق.

٣٨. *المنتظم*: أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الاولى، ١٤١٢ق.

٣٩. *منهاج السنة*: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، ، مصر.

٤٠. *ينابيع المودة*: القندوزي، سليمان بن إبراهيم البلخي، اسلامبول: أختر، ١٣٠١ق.